

التفسير المطول - سورة طه 020 - الدرس 09-99 : تفسير الآيات 99 - 114
، جزاء الإعراض .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ : 1988-03-4

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ،
اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا
، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا من
يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

مخالفة القرآن والإعراض عنه أصل الشقاء :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس السابع من سورة طه .
وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَفَصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدَّ
سَبَقَ وَقَدْ أَتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا .. الذكر هو القرآن الكريم ، فيه ذكر الحقيقة ، فيه ذكر الأمر
الإلهي ، فيه ذكر النهي ، فيه ذكر مصير الإنسان ، فيه ذكر الجنة ، فيه ذكر النار ، فيه ذكر
الطريق المستقيم ، فيه خبر من كان قبلنا ، فيه نبأ من سيأتي بعده ، إنه القرآن الكريم ، وفضل
كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ
فِإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكتفتا ، ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ
هذا الذكر الحكيم ، هذا القرآن الكريم ، الذي فيه طريق سعادتنا ، الذي فيه تعريفنا بأنفسنا ،
تعريفنا بحالتنا ، ما ينبغي أن نفعل ، ما لا ينبغي لنا أن نفعل ، ما هو الحق ؟ ما هو الباطل ؟
ما هو الخير ؟ ما هو الشر ؟ إلى أين المصير ؟ أين كنا ؟ ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي من اتخذه
وراءه ظهريًا ، من لم يعبأ به ، من استخف به ، من قال : إن هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمان ،
من رأى أن أوامر الله عز وجل في كتابه الكريم ثقيلة ، فيها تزمرت ، من رأى أن قوله تعالى :
قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْقِطُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ حَسِيرٌ بِمَا
يَصْنَعُونَ (30)

سورة النور

من يقول : أين أذهب بعيوني ؟ كأنه رأى هذا الأمر تكليفاً ثقيلاً فأعرض عنه ، حينما
قرأ قوله تعالى :

يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِيبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كُفَّارٍ أَثِيمٍ (276)

سورة البقرة

فقال : هذا هو الربا الاستغلالي ، نحن نبيح الربا الاستثماري ، الربا ربا ، الله سبحانه وتعالى قال : **﴿يَمْحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِيبِي الصَّدَقَاتِ﴾**.

من لم يعبأ بأوامر الله شقي في الدنيا والآخرة :

معنى **﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾** من لم يعبأ بهذه الأوامر ، من استخف بها ، من رأى أن الإجراءات الوضعية التي يضعها الإنسان فيها تلبية لحاجاته اليومية ، وتنمشي مع تطورات العصر ، من انطلق في اعتقاده من هذا الاعتقاد فهذا أيضاً يشمله قوله تعالى : **﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾** أحياناً ترى على آلٍ ضخمة مفتاحاً كتب فوقه : التشغيل ، يا ترى ما مصداقية هذه الكلمة ؟ هل هي صحيحة ؟ مبالغ بها ؟ إذا ضغطت هذا المفتاح فتحركت هذه الآلة الضخمة ، أليس تحرك هذه الآلة الضخمة مؤكداً إلى مصداقية هذه الكلمة ؟ لو أن الإنسان تتبع ما يجري في الكون ، لو أن الإنسان تتبع ما يجري للناس في تحركاتهم اليومية لوجد أن كل من طبق كلام الله عز وجل سعد في الدنيا والآخرة ، وكل من حاد عنه شقي في الدنيا والآخرة ، أي إلى أن يمتلك الإنسان هذا اليقين القطعي أن كل الذي أمرنا به في هذا الكتاب خير مطلق محسن ، وأن كل الذي نهينا عنه في هذا الكتاب شر مطلق محسن ، إذا تكونت عندنا هذه القاعدة ، وهذه العقيدة ، عندئذ نقرأ كلام الله فنستسلم لأمره ، وننتهي بما عنه نهى ، فالقضية قضية موقف ، كل المسلمين في هذا الزمان يقرؤون هذا الكتاب ، ويتركون به ، ويضعونه في أجمل مكانة في بيوتهم ، ويتباركون به ، يضعونه في مركباتهم ، في محلاتهم ، في غرفهم ، في أماكنهم ، يزيّنون جدران بيوتهم بآياته ، هذا السلوك لا يقدّم ولا يؤخر ، القضية أن القرآن إذا أمرك بأمر هل أنت مع هذا الأمر ؟ إذا قال الله لك :

وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ وَلَا مَّأْمَةً مُؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَدْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيَبْيَّنُ أَيَّاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَكَبَّرُونَ (221)

سورة البقرة

هل تؤثر في ترويج ابنتك المؤمن الفقير على المنحرف الغني ؟ إذا قرأت القرآن وقلت : صدق الله العظيم ، ولم تكن في هذا المستوى ، بحثت عن زوج لابنك غني ، وتساهلت بدينه

، ورفضت زوجاً فقيراً على الرغم من تمسكه بدينه ، إذا فعلت ذلك فأنت لم تقل : صدق الله العظيم ، لم تقل ذلك .

إذا أمرك الله عز وجل أن تغض بصرك عن محارم الله ، ورأيت في إطلاق البصر متعة لا تفوت ، فأنت لم تقل : صدق الله العظيم ، وأنت قد أعرضت عن هذا الكتاب ، فالقضية ليست قضية تبرك ، قضية أن تضيع في جيبيك ، أن تضيع في مرركتك ، القضية أعمق من هذا ، هل أنت مع أمره ونفيه ؟ هل أنت موقنٌ بيقينٍ قطعياً أن في أوامره الخير الجليل ؟ وأن في الحيد عن خطه المستقيم شقاء لا يعدله شفاء ؟ فهذه الآية تؤكد ذلك : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ في زواج الإنسان لو لم يتبع هدي القرآن الكريم ما سعد بهذا الزواج ، في تجارتة ، من لم يتبع هدي هذا القرآن الكريم لا يحقق أهدافه من عمله ، في كل حركاته ، وسكناته ، في صحته ، في علاقته بنفسه ، في علاقته بجسده ، في علاقته بربه ، في علاقته بزوجته ، بأولاده ، بجيشه ، بزبائنه ، بمن حوله .

جزاء الإعراض تحمل الوزر :

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾.. كلمة يحمل ، و وزر ، الوزر : الحمل الثقيل ، فقد تجد إنساناً علتُه الكآبة ، تسأله : مالك ؟ يقول لك : حمي ثقيل ، له قضية تستوجب مصالحةً بمبلغٍ كبير ، تراه لا ينام الليل ، يخشى من شبح مصيبةٍ شبه قواه ، وتبدد أمواله ، يقول لك : حمي ثقيل ، فالإنسان إذا خالف أمر الله عز وجل يحمل حملاً ثقيلاً ، لو أنه انساق مع شهوته ، وسبب شقاء فتاةٍ كان من الممكن أن تكون زوجةً صالحة ، إنها تلاعنه في كل أوقاته ، تلاعنه بخيالها ، لقد جعلتها امرأةً ساقطة بعد أن كان من الممكن أن تكون امرأةً شريفة ، لقد حمل من الوزر ما لا يطيق ، الإنسان حينما يبني غناه على فقر الناس ، أو حينما يبني سعادته على شقائهم ، يحمل نفسه ما لا يطيق ، فلذلك : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي ما من سعادة أعظم من أن تكون خالي الساحة من كل تبعية أو مسؤولية ، هذا الذي يطيب لونه دليل أن عمله طيب ، لذلك ربنا سبحانه وتعالى رفع راحة البال وصلاح البال إلى مستوى الهدى ، فقال :

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصلِحُ بِاللَّهِمَّ (5)

سورة محمد

أنت أن تمام قرير العين ، أن تمام مطمئن النفس ، لو أن حياتك خشنة ، لو أن فيها متاعب مادية ، لو أن عملك يقتضي جهداً عضلياً كبيراً ، لو أنك واصلت الليل بالنهار من أجل

قوت يومك ، قوت أولادك ، تناه ساعات عديدة تستعيد نشاطك ، لكن هذا الذي بنى مجده على أنفاس الناس ، بنى غناه على فقرهم ، بنى سعادته على شقائهم ، إنه يحمل حملًا ثقيلاً قد نقول في أنفسنا : كيف يحمله ؟

كيف تستطيع أن تناه الليل وقد آذيت حيواناً ؟ هذا الذي يتسلّى ، ويدهس كلباً في أثناء سيره كيف ينام الليل ؟ يوم القيمة كما حدثنا النبي عليه الصلاة والسلام يأتي عصفورٌ وله دويٌ كدوى النحل يقول : يا رب - لمن اصطاده لغير مأكلة - يقول : عن الشريد بن سويد التقي :

من قتل عصفوراً عبّا عَجَّ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ : يَا رَبَّ إِنَّ فَلَائِنَ قَتَلْنِي عَبَّا وَلَمْ يَقْتُلْنِي مَنْفَعَةً .

المنذري : الترغيب والترهيب : خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما : أخرجه النسائي واللفظ له ، وأحمد

هذا الحمل الثقيل لا يعرفه إلا من ذاقه ، من وقع في مخالفة لأمرٍ بشري ، وهذه المخالفة تقضي غرامات كبيرة ، أو تقضي عقاباً أليماً ، قبل أن يُضبط بهذه المخالفة تراه كأنه يحمل حملًا ثقيلاً يكاد يسحقه ، فالحمل الثقيل لا يعرفه إلا من ذاقه ، قد يكون الحمل الثقيل معنوياً ، قد يكون الحمل الثقيل إساءةً لإنسان ، أو هذا الذي يُطلق امرأته بلا سبب ، في ساعة غضبٍ شرداها ، جعلها خارج البيت ، له منها أولاد ، لم تسئ إليه ، إلا أنه أراد أن يشفى رغبة أمه أحياناً ، هذه الزوجة المظلومة ، قد تخطّبه ليلاً نهاراً : ماذا فعلت لك حتى عاملتني هذه المعاملة ؟ هذا حمل ثقيل .

المعاصي حمل ثقيل :

المعاصي والذنوب والآثام حملها ثقيل ، والنفس لا تقوى على حملها ، إن تعذيب الإنسان لذاته شيء لا يعرفه إلا من ذاقه ، فالإنسان كلما كان مستقيماً ، وكلما كان مُحسناً ، وكلما كان منضبطاً ، وكلما كان أشد خوفاً لله عز وجل ، كلما شعر براحة لا تعدلها راحة ، المظاهر المادية لا قيمة لها ، إنها لا تَهْبُنَا السعادة ، إن المال الوفير ، والفراش الوثير ، والبيت الكبير ، والمركبة الوطيدة ، والسمعة المتألقة ، هذه كلها أقنعة كاذبة لا تهبا السعادة ، إن السعادة تتأنى من أن تكون عضواً نافعاً في المجتمع ، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك .

السؤال الخطير : ماذا أديت لبني البشر من خدمات ؟ هل دللتهم على الله عز وجل ؟ هل ساهمت في تخفيف الآلام عنهم ؟ هل كنت عضواً نافعاً ؟ هل يتعلق عملك بخدمتهم أم بسلبيهم حرياتهم ؟ كيف تعيش ؟ من أي جهة تُرزق ؟ أترزق من نفع الناس أم من الإضرار بهم ؟

يا أيها الإخوة الأكارم ؛ كلما حسنت عمل الإنسان سعد في الدنيا والآخرة ، إن الحمل الثقيل حمل المعاشي والآثام ، حمل البغي والعدوان ، حمل الخروج عن أوامر الشرع ، حمل الإساءة إلى الناس ، إن هذا الحمل الثقيل شيء يسحق الإنسان ، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى في آخر سورة البقرة قال :

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيَنَا أَوْ أَحْطَانَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَائْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)

سورة البقرة

دخل رجل إلى بيته وهو مخمور ، فقتل امرأته وخمسة أطفال له ، فلما صحا ماذا فعلت يداه ؟ لو أن أحداً لم يحاسبه ، لو أن أحداً لم يلق القبض عليه ؟ ألم يحمل حملاً لا يحتمله ؟ طبعاً هذه حالة حادة ، مثل حاد ، لكن إذا غششت امرأة مسلماً في البيع قال لك : بالله عليك انصحني ، أنت لم تتصحه ، دللته على البضاعة الكاسدة ، وزينتها له حتى صرفتها عنك ، إنه إذا كان لك ضمير يقط ، إن هذا المسلم الذي وقف على دكانك سوف يكون حملاً ثقيلاً عليك ، هذا الذي يغش الناس ، هذا الذي يعتدي على أعراضهم ، هذا الذي يكذب عليهم ، هذا الذي يحتال عليهم ، هذا الذي يبني ثروته على فقرهم ، كيف يواجه الله سبحانه وتعالى ؟ فلذلك :

فَدَرْهُمٌ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

سورة الزخرف

حينما يأتي ملك الموت ، وحينما ينكشف العمل ، وحينما يرى الإنسان مقامه ، ومكانه ، أفي الجنة أم في النار ، عندئذ أهل النار يصعقون .. ﴿فَدَرْهُمٌ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)﴾ .

﴿مَنْ أَغْرَضَ عَنْهُ﴾ عن هذا الكتاب ، لا يوجد حالة ثلاثة ، إما أن تأخذ به ، وإما إلا تأخذ به ، إن أخذت به هداك لمن هي أقوم : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)

في كل شيء ، والمُطلَق في القرآن على إطلاقه .. ﴿يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَفْوَمُ﴾ في حياتك الزوجية ، في حياتك المهنية ، في حياتك الروحية ، في حياتك الجسمية ، في حياتك العقلية ، في حياتك الاجتماعية ، في حياتك العاطفية .. ﴿يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَفْوَمُ﴾ .

من يرتكب المعاصي والآثام يتحمل وزرها إلى يوم القيمة :

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ﴾ فهذه الهاء في (عنه) على من تعود ؟ ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ﴾ الإنسان .. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ﴾ .. في هذا الوزر ، وبعض المفسرين قال : في جزاء هذا الوزر ، ما قولك أن يرتكب الإنسان معصيةً لساعةً أو ساعات ، أو لشهرٍ أو لسنوات ، ويتحمّل شقاءها إلى الأبد ؟ لو أن هذه المعصية دام نعيمها ، أو دامت لذتها طوال حياته ، وانقضت الحياة ، وجاء الحساب ، وأصبح خالداً في النار نظير هذه المعصية ، هل كان هذا الإنسان عاقلاً ؟ " ابن آدم أطع ربك تسمّ عاقلاً " .

عَنْ شَدَادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
الْكَيْسُ مَنْ ذَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ،
وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ .

الترمذني : حكم المحدث : صحيح

لذلك هذه الكلمة : ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي في الوزر ، أي في جزاء الوزر . هذا مثل منتزع من حياتنا اليومية : لو أن إنساناً في ساعة غضبٍ قتل إنساناً ، وسيق للمحاكمة ، وحكم عليه بأن يمضي في السجن ثلاثين عاماً مع الأشغال الشاقة ، يا ترى نشوء الظفر بقتل هذا الإنسان هل تساوي أن يمضي في السجن ثلاثين عاماً مع الأشغال الشاقة ؟ الثلاثون عاماً تمضي ، والأربعون تمضي ، والخمسون تمضي ، ولكن الأبد لا يمضي ، الأبد أبد ، أي إلى الأبد ، فهذا الإنسان الذي لا يعرف معنى الأبد ومعنى الخلود هو أحمق كبير إذا عصى ربه الواحد المتعالي ، ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ في هذا الوزر ، في تبعه هذا الوزر ، في شقاء هذا الوزر ، في عِقاب هذا الوزر ، في النار التي استوجبها هذا الوزر .

البعد الشاسع بين من يأمر بالمعروف وبين من ينهى عنه :

﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾.. حملٌ ثقيلٌ ، بين أن يأتي الإنسان إلى رب العالمين بوجهٍ نضر ، بوجهٍ أبيض ، بيدٍ محملةً بالأعمال الصالحة ، شتان بين أن يأتي سيدنا الصديق رضي الله عنه ، وقد كان خادماً كما روى عن نفسه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان معه في السراء والضراء ، وساهم معه في نشر هذا الدين الحنيف ، وبين أن يأتي أبو جهلٍ ليقف إلى جانبه ليلقى جزاء عمله ، شتان بين من يأتي يوم القيمة وقد تزوج امرأةً صالحة فسعد بها ، وأسعدها ، وأنجب منها ذريةً طيبة ، رباهَا تربيةً صحيحة ، وكان خيراً معطاءً ، وبين من يأتي وقد زنى بفلانةٍ وعلانةٍ ، وتسبب في شقائهم ، شتان ، شتان بين من يقرض الله قرضاً حسناً وبين المُرليبي ، شتان بين من ينصح في البيع والشراء وبين من يغش ، شتان بين من يصدق وبين من يكذب .

مشاهد من يوم القيمة :

﴿ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَتَحْشِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ رُّزْقًا﴾.. النفح في الصور هذا ورد في أكثر من موضعٍ في كتاب الله ، لا نعرف كنه الصور ، ولكن نعرف أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا أنه في وقتٍ معين ينفح في الصور فيصعب من في السماوات والأرض ، ثم ينفح فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ، أي النفح في الصور إشارة إلى بعث الناس من قبورهم ، الأشياء التي غابت عنا بذواتها وأثارها ، مسلك اليقين بها هو مسلك اليقين الإخباري ، الإخبار اليقيني ، أو اليقين الإخباري ، والله سبحانه وتعالى أخبرنا وهو الصادق المصدق في كتابه الكريم أن هناك نفخاً في الصور يستدعي قيام الناس من قبورهم ليلقوا نتائج عملهم ، ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَتَحْشِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ رُّزْقًا﴾.. رزقاً ما يشبه قوله تعالى :

وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضُتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107)

سورة آل عمران

يَوْمَ تَبَيَّضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدُتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106)

سورة آل عمران

الزرق اللون الأزرق القريب من اللون الأسود ، فهو كنایةٌ عن سواد الوجه الذي هو بسبب الخزي والعار الذي سببته المعصية والانحراف .

وهناك معنى آخر لكلمة زرق : شخص البصر دليل الخوف الذي ملأ القلب ، يحشرون خائفين ، أو يحشرون بوجوه مسودة ، المجرم دائمًا وجهه أسود تعلوه كآبة ، تعلوه مسحة من سواد .

من حقارة الدنيا قصر زمنها :

﴿ يَتَحَافَّوْنَ بَيْنَهُمْ ﴾ .. التحافت الكلام السري ، أي بصوت مهوس ، بصوت غير مسموع .. ﴿ يَتَحَافَّوْنَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْمٌ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي هذه الدنيا التي سرحتم بها ، ومرحتم بها ، واستعليتم بها على خلق الله ، وفعلتم ما فعلتم ، وعصيتم ما عصيتم ، وانتهکتم ما انتهکتم ، هذه الدنيا التي ظننتم أنها طولية جداً ، وأنها حياة طويلة أمضيتموها في المتع الرخيصة هي الآن في نظر المجرمين إن هي إلا عشرة أيام .. ﴿ يَتَحَافَّوْنَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْمٌ إِلَّا عَشْرًا﴾ فإذا واجه الإنسان الألم ، تمضي أيام السرور عليه سراعاً ، أيام اللذة تمضي وكأنها دقائق ، لذلك قالوا : ساعة اللذة دقيقة ، وحقيقة الألم ساعة ، الأيام التي سرر بها الإنسان ، وانقضى أجله ، وجاء يوم القيامة ليلقى جزاء عمله يراها ساعات ، أياماً .. ﴿ يَتَحَافَّوْنَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْمٌ إِلَّا عَشْرًا﴾ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْلَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْمٌ إِلَّا يَوْمًا﴾ بل إن بعض هؤلاء المجرمين ليقولون قولًا مغاييرًا لم يلبثوا إلا يوماً واحداً ، ما قولكم ؟ هل من العقل ومن الذكاء ومن رجاحة التفكير أن يمضي الإنسان عمرًا قصيراً مشحوناً بالمتاع والآلام والهموم بمعصية يلقى بعدها عذاباً أبداً سرمدياً ؟ ! ﴿ إِنْ لَبِثْمٌ إِلَّا عَشْرًا * تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْلَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْمٌ إِلَّا يَوْمًا﴾ يوماً ، لذلك سئلت السيدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى عن الإنسان فقالت : " هو بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه " ، بضعة أيام ، كل ما لها عمر ، ليسأل نفسه هذا السؤال : كيف مضى هذا العمر ؟ يقول لك : والله بين عشية أو ضحاها صرت في هذا العمر ، إذا كانت الأربعون عاماً مضت هكذا ، ألا يمكن أن تمضي العشرون الآخر بلمح البصر ؟ تمضي سراعاً ، نحن نستقبل الصيف ونودع الصيف ، نستقبل الشتاء ونودع الشتاء ، نستقبل عام سبعة وثمانين ، وبعد عام ثمانية وثمانين ، وبعد بستين عام تسعين ، وهكذا ، الأيام تمضي سريعاً ، من هنا قال سيدنا علي كرم الله وجهه : " كل متوقع آت وكل آتٍ قريب " .

من يجهد في إرضاء الله فهو في بحبوبة ولن يعذبه الله عز وجل :

على كل هناك بشرارة من الله عز وجل أن الذي يخشى ذنبه ، ويسعى لتكفيره ، أن الذي يُقلق مصيره ، ويسعى لصلاح نفسه ، أن الذي يخشى غضب الله عز وجل ، ويسعى لبلوغ رضاه ، أن الذي لا يرتاح لحالي النفسية ، ويسعى لتزكيتها ، هذا الإنسان الذي يستغفر ، ويجهد في إرضاء الله عز وجل هذا في بحبوحةٍ لن يعذبه الله عز وجل لقوله تعالى :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبْهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبْهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)

سورة الأنفال

أي : **«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبْهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ»** .. هذه الآية أول معنى من معانيها : إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم لن يعذبوا ، لأن الدعوة قائمة ، وإذا انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ، وبقيت سنته فيهم ، وشريعته فيهم ، مطبقة في بيوتهم ، وفي أعمالهم ، وفي تحركاتهم ، وفي سكناتهم ، إذا بقيت محبتهم فيهم لن يعذبهم الله عز وجل ، أي إذا كان الإنسان قد أفلقه مصيره ، خاف على نفسه ألا يكون الله راضياً عنه ، ورأى في حياته خللاً ، وسعى لاصلاحه فهو في بحبوحة ، ليطمئن ، ما دام السعي حيثاً لبلوغ الهدف النبيل فالله سبحانه وتعالى يعطي هذا العبد فرصهً كي يصلح من شأنه .

مصير الجبال يوم القيمة :

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْنَ يَسْفَهُمَا رَبِّي نَسْفَاً» .. يبدو أن الجبال عند أهل مكة شيءٌ صارخٌ في حياتهم ، حيثما التفت المكّي رأى جبالاً شاهقةً موزعةً في كل الأحياء ، ومن يحج البيت الحرام يعرف مصداق هذه الآية ، يبدو أن كفار قريش سألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن مصير هذه الجبال ؟ فقال الله عز وجل : **«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْنَ يَسْفَهُمَا رَبِّي نَسْفَاً** لا يبقى منها شيء .. **«فَيَنْرُهَا قَاعًا صَفَصَفًا** أي يذر مكانها أرضاً منبسطةً ملساء ، قاعاً أي أرضاً ممهدةً ملساء ، **«لَا تَرَى فِيهَا عِوْجًا وَلَا أَمْتَأً**.. العوج هو المنخفض ، والأمت هو المرتفع ، لا مرتفع ولا منخفض ، أو أن هذه الجبال تصبح كالرمال تذروها الرياح ..

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)

سورة القارعة

هذه قدرة الله عز وجل ، يقول لك : جبل هيمالايا ارتفاعه اثنا عشر ألف وثمانمائة متر .. أي اثنا عشر كيلو متر تقريباً .. أعلى نقطة فيه قمة إفرست ، هذا الجبل داخل في هذه الآية : **«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْنَ يَسْفَهُمَا رَبِّي نَسْفَاً** جبال الألب بأوروبا ، جبال أورال ، جبال الأطلسي ، هناك جبال كثيرة ، هذا جبل قاسيون تلة صغيرة .. **«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْنَ يَسْفَهُمَا رَبِّي نَسْفَاً * فَيَنْرُهَا قَاعًا صَفَصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوْجًا وَلَا أَمْتَأً** ، لذلك :

إِذَا الشَّمْسُ كُوِرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِلَتْ (4) وَإِذَا
الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِجَتْ (7) وَإِذَا الْمُؤْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ
نَّبْتٍ قُتِلَتْ (9)

سورة التكوير

هذه كلها من مشاهد يوم القيمة .

تلبية الداعي يوم القيمة :

يَوْمَئِذٍ هُؤلاءِ الْمُجْرُمُونَ ، هُؤلاءِ الَّذِينَ عصَوْا رَبَّهُمْ فِي الدُّنْيَا ، هُؤلاءِ الَّذِينَ عَتَوا عَنْ
أَمْرِهِ ، هُؤلاءِ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا ، اسْتَعْلَوْا ، رَأَوْا أَنَّهُمْ كُلُّ شَيْءٍ ، هُؤلاءِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَبَعُونَ الدَّاعِيَ لَا
عِوْجَ لَهُ﴾ أَيْ لَا يَتَلَكَّوْنَ ، وَلَا يَتَبَاطَأُونَ ، وَلَا يَمْتَعُونَ بِتَلْبِيَةِ الدَّاعِيِّ ، نَحْنُ فِي الدُّنْيَا ، إِذَا
جَاءَ بَعْضُ النَّاسِ الدَّاعِيَ لِيَأْخُذَهُ إِلَى مَكَانٍ مُعَيْنٍ ، لَيْسَ فِي إِمْكَانِهِ أَنْ يَقُولَ : لَا أَذْهَبُ ، فَكَيْفَ
إِذَا جَاءَ الدَّاعِيَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى ؟ إِذَا جَاءَ الدَّاعِيَ مِنْ قَبْلِ إِنْسَانٍ لَا تُسْتَطِعُ أَلَا تَلِي
دُعَوْتَهُ ، فَكَيْفَ إِذَا جَاءَ الدَّاعِيَ مِنْ قَبْلِ الْوَاحِدِ الْدِيَانَ ؟ فَلَذِكَ ارْتَكَبَ أَحْدَهُمْ عَمَلاً فَظِيعَاً ، وَذَهَبَ
إِلَى الْحَجَّ لِيَسْتَغْفِرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَكَانَ يَقُولُ : " رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَلَا أَظْنَكَ تَقْعُلَ " ، فَقَالَ لَهُ
أَعْرَابِيٌّ : " يَا هَذَا مَا أَشَدَّ يَأْسَكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ! " ، فَقَالَ : " ذَنْبِي عَظِيمٌ " ، ذَكَرَ لَهُ قَصَّةً
مَرْوِعَةً ، يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ فِي بَيْتٍ ، وَقَدْ قَتَلَ الزَّوْجَ وَالوَلَدَ فَأَعْطَتَهُ الْزَوْجَةُ - طَبِيعًا - هُوَ يَهْدِفُ أَنْ
يَأْخُذَ مَا فِي هَذَا الْبَيْتِ - درِعاً مُذْهَبَةً كَتَبَ عَلَيْهَا بَيْتَانَ مِنَ الشِّعْرِ فَوْقَ مَغْمِيًّا عَلَيْهِ :

وَقَاضِيُّ الْأَرْضِ أَسْرَفَ فِي الْقَضَاءِ

لَقَاضِيُّ الْأَرْضِ مِنْ قَاضِيِ السَّمَاءِ

إِذَا جَارَ الْأَمِيرَ وَحَاجِبَاهُ

فَوْيَلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ

* * *

أَيْ إِذَا جَاءَ يَوْمَئِذٍ الدَّاعِي .. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَبَعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوْجَ لَهُ﴾ لَا عِوْجَ ، الْعِوْجُ
: لَا تَلَكُّوْنَ ، لَا تَرِيْثُ ، لَا رَفْضٌ ، لَا تَمَرُّدٌ أَبَدًا .. ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَبَعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوْجَ لَهُ﴾ نَحْنُ فِي
الْدُّنْيَا إِذَا جَاءَ دَاعِيُ الْمَوْتِ ، مَنْ مِنَ النَّاسِ يُسْتَطِعُ أَنْ يَرْفَضَ هَذِهِ الدُّعَوَةَ ؟ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ
مَشَيَّدَةً .. لَا تَأْمُنُ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ .. هَكَذَا قَالَ أَحَدُ الشَّعَرَاءِ فِي الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ :

إِنْ تَمْنَعْتَ بِالْحِجَابِ وَالْحَرْسِ
فِي جَنْبِ مَذْرَعٍ مِنْهَا وَمُثْرَسِ
كَالْحَاطِبِ الْخَابِطِ الْأَعْوَادَ فِي الْفَسِّ
إِنِّي السَّفِينَةُ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبْسِ

لَا تَأْمُنُ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ
فَمَا تَزَالُ سَهَامُ الْمَوْتِ نَافِذَةً
أَرَاكَ لَسْتَ بِوَقَافٍ وَلَا حَذِيرَ
تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا

* * *

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها .. يقول الناس : " الله يرحمنا ، الله يغفر لنا ، نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان ، الله يتولانا بعفوه ، لا تسعن إلا مغفرته " ، هذا كلام لا يسمن ولا يغني من جوع ، لابد من العمل ، طلب الجنة من دون عمل ذنب من الذنوب ، هذا الذي يطلب الجنة بلا عمل كالمستهزئ بربه ..

فإنا منحنا بالرضا من أحبنا
لنعميك مما فيه أشرار خلقنا
وأخلص لنا تلق المسرة والهنا

أطع أمرنا نرفع لأجلك حبنا
ولذ بمحانا واحتم بجنابنا
وعن ذكرنا لا يشغلنا شاغل

* * *

الذي رأوه لما وليت عنـا لغيرنا
خلعت عنك ثياب العجب وجئتـنا
عذرتـ الذي أضـحـي قتيلاً بـحـبـنا
لمـتـ غـريـباً واشـتـيـاقـاً لـقـبـنـا

وبعدئـ يقول ناظـم هذه القصـيدة :
فلـو شـاهـدتـ عـيـنـاكـ منـ حـسـنـنا
ولـو سـمعـتـ أـذـنـاكـ حـسـنـ خطـابـنا
ولـو ذـقـتـ مـنـ طـعـمـ المـحـبـةـ ذـرـةـ
ولـو نـسـمـتـ مـنـ قـرـبـنـاـ لـكـ نـسـمةـ

* * *

سهـولـتـهـ قـلـنـاـ لـهـ قـدـ جـهـلـتـنـاـ
وـأـصـعـبـ مـنـ قـتـلـ الفتـىـ يـوـمـ هـجـرـنـاـ

فـماـ حـبـنـاـ سـهـلـ ..ـ هـنـاـ بـيـتـ القـصـيدـ :
فـماـ حـبـنـاـ سـهـلـ وـكـلـ مـنـ اـدـعـىـ
فـأـيـسـرـ مـاـ فـيـ الحـبـ لـلـصـبـ قـتـلـهـ

* * *

العاـقـلـ مـنـ يـعـدـ لـمـوـقـفـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ عـدـتـهـ :

لـذـكـ رـبـنـاـ عـزـ وـجـلـ يـقـولـ : ﴿ يـؤـمـئـ يـتـبـعـونـ الدـاعـيـ لـاـ عـوـجـ لـهـ وـخـشـعـتـ الـأـصـوـاتـ لـلـرـحـمـنـ فـلـاـ تـسـمـعـ إـلـاـ هـمـساـ﴾ .. فيـ الدـنـيـاـ يـنـفـجـرـ الإـنـسـانـ أـحـيـاـنـاـ بـالـصـوـتـ ،ـ يـعـلوـ صـوـتـهـ عـلـىـ صـوـتـ الـآـخـرـينـ بـدـافـعـ مـنـ اـسـتـعـلـائـهـ أـوـ تـمـرـدـهـ ،ـ وـلـكـ هـذـاـ الـمـجـرـمـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ لـاـ تـسـمـعـ لـهـ صـوـتـاـ ..ـ ﴿ وـخـشـعـتـ الـأـصـوـاتـ لـلـرـحـمـنـ﴾ـ خـشـوـعـ الصـوـتـ أـيـ سـكـونـهـ ..ـ ﴿ فـلـاـ تـسـمـعـ إـلـاـ هـمـساـ﴾ـ لـشـدـةـ هـوـلـ الـمـوـقـفـ .ـ

إنـماـ مـنـ يـتـقـيـ اللـهـ الـبـطـلـ

لـيـسـ مـنـ يـقـطـعـ طـرـقاـ بـطـلـاـ

* * *

البطولة أن تعد لهذا الموقف عُدّته ، البطولة أن تعد لهذا الموقف الاستقامة التامة ، والعمل الصالح ، وفهم كتاب الله ، والعمل به ، وأن تحضر مجالس العلم ، وأن تعرف الأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، هذه هي البطولة .

الشفاعة حقٌ ولكن لا تكون إلا بإذن الرحمن ورضاه :

*** يَوْمَئِذٍ يَتَبَعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوْجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ***

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا .. الله سبحانه وتعالى ينفي نفع الشفاعة إحقاقاً للحق ، وتنفيذاً لوعده ووعيده ، وعد الله بالجنة ، ووعيده بالنار ، فإذا نفعت الشفاعة بمعناها الضيق تعطل الوعد والوعيد ، وتعطل الثواب والعقاب ، ولم يتحقق الحق ، وكان ذلك مخالفًا لما ذكره الله سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى ، لكن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام حق ، ولها تفصيل ذكرناه في دروس العقيدة ، شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينالها إلا من مات غير مشركٍ بالله عزٌّ وجلٌّ ، هذا ورد في صحيح الأحاديث .. لا تزال النفس شفاعة النبي إلا إذا كانت موحدةً في الدنيا .. ولها شروطٌ ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول : " يا فاطمة ! مثيراً إلى المعنى الساذج لشفاعة الذي يتعلق به عامة الناس ، يظنون أنهم إذا آمنوا بشفاعة النبي فلهم أن يفعلوا ما يفعلون من المنكرات والآثام والمعاصي ، والنبي صلى الله عليه وسلم يدخلهم الجنة ، وانتهى الأمر ، تعطل الدين كله ، الشفاعة لها معنى آخر لا مجال لأن ذكرها بالتفصيل ، ولكنها حق ، ويجب أن نعتقد بها ، وهي من العقائد التي يجب أن تعلم بالضرورة ، لكن بمفهومها الساذج أن يفعل الإنسان ما يفعل من شرورٍ ، وأثامٍ ، ومعاصٍ ، وأن يمتنع عن أداء الحقوق والواجبات ، ويقول : سَيُشَفَّعُ لِي ، فأنا من أمة محمد ، هذا الكلام ليس مقبولاً في نص هذه الآية ، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَاتَمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَأَنْزَرَ عَشِيرَاتَ الْأَقْرَبِينَ) قَالَ : (يَا مَعْشَرَ قُرْيَشٍ - أُوْ كَلِمَةً تَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أَغْنِيَ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا بَنِي عَبْدٍ مَنَافٍ لَا أَغْنِيَ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَيَا صَفِيَّةً عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أَغْنِيَ عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .

البخاري ومسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسام : من سأك طريقاً يطلب فيه علماً سهّل الله له به طريقاً من طرق الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

صحيح ابن حبان أخرجه في صحيحه

وفي قول آخر إن النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيمة يرى بعضاً من أمهات يسحبون إلى النار فيقول : عن أبي سعيد الخري :

إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ : سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَذَلَ بَعْدِي .

صحيح مسلم

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ .. فالشفاعة كما قلت قبل قليل حق ، ولكن لمن أذن له الرحمن ، والنبي عليه الصلاة والسلام صاحب الشفاعة العظمى ، ولكن شفاعته مقيدة بأن يموت المرء غير مشرك بالله عز وجل ، فمن لم يشرك بالله عز وجل ، واتبع سنته في الدنيا ، شفع له النبي عليه الصلاة والسلام في الآخرة ، فكانت كرامة الله عز وجل لهذا النبي بأن يسوق الخير للمؤمنين على يديه ، أما في القسم الأخير من هذه الآية : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أي حتى الشفاعة نفسها أولاً لا تجدي إلا في حالة واحدة : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ وهذا مصدق قوله تعالى :

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ حَشِّيَّتِهِ مُشْفَعُونَ (28)

سورة الأنبياء

الله تعالى يعلم أعمال كلخلق :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ أي الله سبحانه وتعالى يعلم أعمال كل الخلق .. ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أمّا هم .. ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ لذلك من السذاجة أن تظن أنك تعلم كل شيء ..

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)

سورة الإسراء

الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذ سنته ولا نوره له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشقّع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسعة كرسيته السموات والأرض ولا ينوده حفظهما وهو العلي العظيم (255)

سورة البقرة

العجز عن الإدراك إدراك :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ .. الإنسان أحياناً كما قال بعض العلماء : العجز عن الإدراك إدراك ، حينما ترى أن الله سبحانه وتعالى لا نهائي في كل شيء ، وأن علمه لا يُحد بحد ، وأن قدرته لا تُحد ، وأن عظمته لا تُحد ، عندئذ تستسلم لهذه الذات الكاملة ، ولا يسعك إلا أن تعبد الله سبحانه وتعالى ، وأن تشكره على عطائه ، وهذا مصدق قوله تعالى :
بِلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)

سورة الزمر

أشد الناس خسارة يوم القيمة من حمل ظلمًا :

﴿ وَعَنِتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُومِ ﴾ أي خضعت **﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾** .. أي من حمل ظلماً يأتي يوم القيمة وهو من أشد الناس خسارة ، خاب ، لم يحقق الهدف ، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام : **عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ :**
الظُّلْمُ ظُلْمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

صحيح البخاري

وأشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه ، ومعنى ظلم النفس أن يحرمنها معرفة الله عز وجل ، هذا أشد أنواع الظلم :
وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوِيْ كُلُّوا مِنْ طَبَبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكُنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

سورة البقرة

حينما تحرم نفسك لذة معرفة الله ، وسعادة القرب منه ، فهذا من أشد أنواع الظلم ،
وَعَنِتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا .

اقتران الإيمان بالعمل الصالح :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَصْمًا ﴾ والله الذي لا إله إلا هو لزوال السماوات والأرض أهون على الله من أن تستقيم على أمره ، وأن تعمل صالحة ، وأن يخيب مسعاك ، وأن تهضم حقوقك ، لذلك هذه الآية تبيّن التقاول في النفس ، وتبيّن البشر ،
وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . .. عرف الله وخدم الخلق ، كان مستقيماً في علاقته

بالناس ، قَدْمٌ للناس خدماتٍ صحيحة مخلصة ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، انطلق من قول النبي عليه لصلة والسلام : عن جعفر بن بركان :

الْخَلْقُ عِبَادُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفُعُهُمْ لِعِيَالِهِ .

بداية السول: خلاصة حكم المحدث : إسناده ضعيف جداً

من كان عمله صالحاً ، من خدمبني البشر ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، من صدقة من أخلص لهم ، من أعنهم على مصابئهم ، من خف عنهم تبعات الحياة ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ولكن العمل الصالح مقيد بالإيمان ، من دون إيمان ربما كان هذا العمل الصالح ذكاءً ، وكياسةً ، وسياسةً ، وحذقاً في تصريف الأمور ، ربما تكون محسناً ليقول الناس عنك كذلك ، ليترفع اسمك في سماء من تعاشره ، ولكن البطولة أن تعمل صالحاً وأنت مؤمن ، العمل الصالح إذا بني على الإيمان كان ابتغاء مرضاة الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لا أن يُظلم ، ولا أن تُهضم حقوقه .

معنى تصريف الوعيد في القرآن :

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ معنى عربياً أي واسع البيان .. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ .. أي نَوَّعنا فيه ، تارةً يأتي الأمر ، وتارةً يأتي النهي ، وتارةً يأتي الوعد ، وتارةً يأتي الوعيد ، وتارةً تأتي القصة ، وتارةً يُضربُ المثل ، وأخرى يُذكرُ الإنسان بماضيه ونشأته ، ثم يصوّر له مصيره بعد الموت ، ومرةً يذكر لنا الله سبحانه وتعالى أخبار من سبقنا ، ومرةً يحذثنا بما سيكون .. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ لعل هذا القرآن بسوره ، وأياته ، وقصصه ، وأمثاله ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، وحكمه ، لعله يُحدث في هذه النفس أثراً بيّناً .

وجوب تنزية الله من كل نقصٍ :

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.. تعالى عن كل نقيصة ، سبحانه وتعالى ، هذا من ألفاظ التنزية ، أي تعالى الله علواً كبيراً عن أن يخلقنا عبثاً ، عن أن يهضم حقوقنا ، عن أن يظلمنا ، عن ألا يرحمنا ، تعالى الله سبحانه وتعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ .

العلم هو القيمة الأساسية التي أرادها الله لتكون عاملًا مرجحاً بين بني البشر :

﴿ وَلَا تَعْجَلْ - يا محمد - بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضِي إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ..

هذه الآية أيضاً إشارةً دقيقة إلى أن القيمة الأساسية التي أرادها الله لتكون عاملًا مرجحاً بين بني البشر هو العلم ..
أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتُ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هُنَّ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)

سورة الزمر

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ لذلك أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن يتعلم ،
وأن يعرف الله عز وجل ، وإن الله عالم يحب كل عالم .. عن علي بن أبي طالب :
خِيرُكُمْ مَنْ تَعْلَمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ .

صحيح الترمذى: خلاصة حكم المحدث : صحيح : أخرجه الترمذى واللفظ له، وأحمد .
وليس فوق مرتبة العلم مرتبة ، فإذا أردت الكرامة عند الله فتعلم هذا القرآن ، وعلمه
الناس ، عندئذ تكون من خير الناس ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ لم يقل : زدني مالاً ، لم يقل : زدني جاهًا ، لأن المال زائل ، ظل زائل ، وعارية مستردة
، ولأن الجاه ينتهي بالموت ، ولكن الله عز وجل قال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ من هنا قال
عليه الصلاة والسلام :
لا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله قريباً .

الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال

يجب أن تزداد في كل يوم علمًا وقرباً ، تعلم كتاب الله ، احضر مجالس العلم تزداد
علمًا ، افعل الصالحات تزداد قرباً .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَالًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)

سورة الكهف

فلذلك العلم يستمر أثره إلى ما بعد الموت .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
إِذَا مَاتَ إِلَيْنَا إِنْسَانٌ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ ، صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ ،
وَوَلَدٌ صَالِحٌ يُدْعَوْ لَهُ .

صحيح الجامع

فَلَذِكَ بَابُ الْعِلْمِ مُفْتَحٌ ، وَأَبْوَابُ الْمَسَاجِدِ مُفْتَحَةٌ ، وَلِحَكْمَةٍ بِالْغَةِ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ
بَذِلِ الْعِلْمِ مُتَاحًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ ، الْعِلْمُ مُبَذُولٌ مِنْ دُونِ مُقَابِلٍ ، لَا تُسْتَطِعُ أَنْ تُطْرُقَ بَابَ الطَّيِّبِ
إِلَّا وَالْمَالُ فِي جَيْبِكَ ، وَلَا تُسْتَطِعُ أَنْ تُطْرُقَ بَابَ الْمَحَامِيِّ إِلَّا وَالْمَالُ فِي جَيْبِكَ ، وَلَا تُسْتَطِعُ أَنْ
تُدْخِلَ إِلَى حَانُوتِ إِلَّا وَالْمَالُ فِي جَيْبِكَ ، وَلَكِنَّكَ تُسْتَطِعُ أَنْ تُدْخِلَ أَيِّ بَيْتٍ مِنْ بَيْوَاتِ اللَّهِ لِتُسْتَمِعَ
إِلَى تَقْسِيرِ كَلَامِ اللَّهِ مِنْ دُونِ مُقَابِلٍ ، لَا جَزَاءَ وَلَا شَكُورًا ، فَلَذِكَ الْعِلْمُ مُبَذُولٌ ، فَعَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ
أَنْ يَتَعَلَّمَ كَلَامَ اللَّهِ وَأَنْ يَعْلَمَ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ☦